Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(11); December 2019

Artical History

Received/ Geliş 23.11.2019 | Accepted/ Kabul 09.12.2019 | Available Online/yayınlanma 30.12.2019.

SERVICES OF SULTAN AHMED I(1012 AH - 1026 AH / 1603 CE - 1617 CE) FOR THE TWO HOLY MOSQUES

خدمات السلطان أحمد الأول (1012هـ – 1026هـ/ 1603م–1617م) للحرمين الشريفين

د. أماني جعفر الغازي –الأستاذ المشارك –جامعة الملك عبد العزيز

Dr. Amani Jaffar AL-Ghazi -
Co-professor
-King abdalaziz univarsty

الملخص

حرص العثمانيون منذ قيام دولتهم على التعبير عن مدى حبهم واحترامهم للحرمين الشريفين، وذلك ببذلك الكثير من الأموال والمساعدات لأهل مكة خاصة عند تعرضهم للكوارث والنكبات سواء كانت سيولاً أو قحطاً أو غيرها، وكانت هذه الرعاية لأهل مكة قبل وصولهم للعالم الإسلامي فأرسلوا الصرة إلى الحجاز من السلطان بايزيد الأول أي قبل أن يتشرف العثمانيون بخدمة منطقة الحجاز بأكثر من قرن من الزمان، ثم أرسل السلطان مراد الثاني الصرة وكان مقدارها عشرة آلاف أقجة وتلاهم السلطان مُحَمَّد الفاتح فأرسل سبعة آلاف ذهب، وأرسل السلطان بايزيد الثاني أربعة عشر ألف دوقة ذهباً، والسلطان أحمد اهتم اهتماماً كبيراً بالحرمين الشريفين وسار على منوال أجداده، وهو أول من قام بإرسال الكسوة من

السلاطين العثمانيين، كما أنه أوقف هو وزوجته السلطانة كوسم الكثير من حاصلات قرى نائية بالأناضول على مكة المكرمة، فكانت مكة والمدينة تعجان بالحركة، ويعمهما الخير مع قدوم الصرة كل ذلك يدل دلالة واضحة على مدى ارتباط العثمانيين وتقديرهم للحجاز عامة ومكة المكرمة على وجه الخصوص. فالطابع الخيري لمؤسسة الوقف يمثل ركناً ركيناً وأساساً متيناً لها، ولا يمكن النظر إلى تاريخ الأمة الإسلامية بمعزل عن هذه الخيرية التي اتصف بها المجتمع المسلم أفراداً وجماعات.

Abstract

Since the establishment of their state, the Ottomans have expressed their love and respect for the two Holy Mosques by granting a lot of money and assistance to the people of Makkah, especially when they are exposed to disasters and catastrophes, whether they are torrents or drought,……etc .

This care was given to the people of Mecca before they reached the Islamic world. They sent the money (Surra) to Hijaz from Sultan Bayezid I before the Ottomans had the honor of serving Al-Hijaz area for more than a century. Then, Sultan Murad II sent the money and it was ten thousand Oqja (Ottomans currency), followed by Sultan Muhammad Al-Fateh who sent seven thousand gold, and then, Sultan Bayezid II sent fourteen thousand gold Duoqs.

Then, Sultan Ahmed paid great attention to the two Holy Mosques and followed the example of his ancestors, And he was the first of the Ottoman sultans to send Al Keswa (The Holley Mosque cladding). Furthermore he and his wife Sultana Qusem endowed a lot of the crops and outcomes of remote villages of Anadol to Mecca. So, Makkah and Madinah were full of life and bursting with movement even the welfare spread with the arrival of the money. This is a clear indication of how the Ottomans were associated with and appreciated AlHijaz in general and Makkah in particular The charitable nature of the Waqf Foundation represents a cornerstone and a strong foundation for it and the history of the Islamic Ummah can not be seen in isolation from this charity, which has characterized the Muslim community as individuals and groups.

1- المدخل

حرص العثمانيون منذ قيام دولتهم على التعبير عن مدى حبهم واحترامهم للحرمين الشريفين، وذلك ببذلك الكثير من الأموال والمساعدات لأهل مكة خاصة عند تعرضهم للكوارث والنكبات سواء

كانت سيولاً أو قحطاً أو غيرها، وكانت هذه الرعاية لأهل مكة قبل وصولهم للعالم الإسلامي فأرسلوا الصرة إلى الحجاز من السلطان بايزيد الأول أي قبل أن يتشرف العثمانيون بخدمة منطقة الحجاز بأكثر من قرن من الزمان، ثم أرسل السلطان مراد الثاني الصرة وكان مقدارها عشرة آلاف أقجة وتلاهم السلطان مُحَمَّد الفاتح فأرسل سبعة آلاف ذهب، وأرسل السلطان بايزيد الثاني أربعة عشر ألف دوقة ذهباً، والسلطان أحمد اهتم اهتماماً كبيراً بالحرمين الشريفين وسار على منوال أجداده، وهو أول من قام بإرسال الكسوة من السلاطين العثمانيين، كما أنه أوقف هو وزوجته السلطانة كوسم الكثير من حاصلات قرى نائية بالأناضول على مكة المكرمة، فكانت مكة والمدينة تعجان بالحركة، ويعمهما الخير مع قدوم الصرة كل ذلك يدل دلالة واضحة على مدى ارتباط العثمانيين وتقديرهم للحجاز عامة ومكة المكرمة على وجه الخصوص. فالطابع الخيري لمؤسسة الوقف يمثل ركناً ركيناً وأساساً متيناً لها، ولا يمكن النظر إلى تاريخ الأمة الإسلامية بمعزل عن هذه الخيرية التي اتصف بها المجتمع المسلم أفراداً وجماعات.[1]

2- هدف الدراسة وأهميتها :

إن هدف هذه الدراسة الرئيسي يكمن في إظهار دور سلاطين عصر الصفف في الاهتمام بالحرمين الشريفين وكيف أنهم أوقفوا عليه الأوقاف للعناية به والاهتمام ، بالإضافة إلى إظهار الهدايا التي تقدم للحرمين الشريفين .

3- موضوع الدارسة :

إن مكة المكرمة هي العاصمة الدينية والثقافية والاقتصادية لجميع المسلمين في كل زمان ومكان وهي مهوى أفئدتهم ومستقر وحدتهم ومجمع أخواتهم، لذا كانت خدمة هذه البقعة شرفاً يحرص عليه الحكام المسلمين في كل عصر من عصور التاريخ على الظفر به[2].

تعتبر أوقاف الحرمين الشريفين من أهم وأكثر الأوقاف انتشاراً في العالم الإسلامي، وهي من الأوقاف التي تبرز عالمية الوقف ودوره في التعبير عن مشاعر المسلمين في كل مكان نحو الحرمين الشريفين ومن يجاورهما من سكان وما تحتاج إليه المنشآت الموجودة هناك للإنفاق على المجاورين والمحتاجين. وازداد

اهتمام السلاطين العثمانيين بالحرمين الشريفين كمظهر لتأكيد سيادة العثمانيين في العالم الإسلامي، وخصوصاً في مواجهة التحديات الاستعمارية آنذاك (3).

4- النقاط التي ستتعرض لها الدراسة :

وسنناقش في هذه الدراسة عدة نقاط تنطلق من أعمال بعض السلاطين العثمانيين في مؤسسات الوقف الإسلامي وهي :

1. السلطان أحمد الأول 1012-1026هـ/1603م-1617م (4).
2. ماه بيكركوسم (باش قادين) (5).
3. فاطمة بنت السلطان أحمد الأول(6).

5 – منهجية الدراسة :

تعتمد الدراسة على كتابات المؤرخين المعاصرين للحدث ، ومن لحق بهم من المؤرخين الثقات ، ثم فحص المعلومات الواردة ، والتأكد من صحتها ، في ذلك بداية البحث السمات المروة منه .

6- حدود الدراسة الزمانية والمكانية :

تتناول الدراسية فترة حكم السلطان أحمد الأول 1012هـ-1026هـ/ 1603م – 1617م ، في استانبول ومنها إلى الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة .

7- الخاتمة :

تحتوي على نقاط أهم النتائج التي توصل لها البحث

الاوقاف في الدولة العثمانية :

لقد تصدر هذا الاهتمام والأنفاق على الحرمين الشريفين بشكل خاص عهد السلطان سليمان القانوني 926-974هـ/1520-1566م، الذي بنى هو وزوجته خُرّم خاصكي سلطان[7] بعض المنشآت الجديدة ضمن أوقافهما الكثيرة التي امتدت في أرجاء الدولة العثمانية والتي اهتم بها ابنهما السلطان سليم الثاني أثناء توليه الحكم .

وتعتبر (دفاتر مهمة) من أهم المصادر الوقفية في الحجاز حيث أرخّت لهذه الفترة بالوثائق وهي مصدراً مهماً لفهم النظام العثماني وللتعرّف إلى الوضع العثماني. وإذا طبقنا ذلك على الأوقاف يمكن القول إن (دفاتر المهمة) تكشف عن واقع الأوقاف (التقصير والفساد في إدارتها) وليس كما يجب أن تكون وفق الواقف الذي أنشأها أو وفق الوثائق (الوقفيات) المؤسسة لها والتي تحدد مصادر دخلها وأوجه الإنفاق عليها[8].

ولدينا أقدم دفترين من دفاتر المهمة (الأول عن فترة 1544-1545م، والثاني عن فترة 1552م المحفوظة في أرشيف متحف "طوب قابي". في حين أن لدينا 267 دفتراً في أرشيف رئاسة الوزراء، وهي تغطي الفترة ما بين 1553-1905م، وفي الواقع، تعتبر هذه الدفاتر كنزاً للباحثين لأنها تغطي الجوانب الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية للولايات العثمانية، وفي هذا السياق لا تختلف أوقاف الحرمين الشريفين عن غيرها من الاوقاف مثل المدارس والتكايا وغيرها الموجودة في أرجاء الدولة العثمانية، أي أن قدسية الحرمين الشريفين لم تكن تحول دون وجود تجاوزات عليها أو اغتصابات لمواردها[9].

ولهذا حرصت الدولة العثمانية منذ تأسيسها وإنشاء الأوقاف على الحرمين الشريفين أن يحظوا بكل الاهتمام وأن لا يحدث تجاوزات في الأوقاف إلا على أضيق الحدود .

فإن الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة التي تتعلق بأوقاف الحرمين الشريفين كثيرة وتؤرخ لفترة مهمة جداً في التاريخ العثماني، وهو ما يؤكد أهمية هذه الدفاتر في التعرف إلى واقع الحال للأوقاف خلال الحكم العثماني وإلى واقع الحال في شكل عام في الدولة العثمانية من النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية. فدفاتر المهمة تكشف عما تكشفه لأنها ببساطة ترتبط بمؤسسة الديوان الهمايوني الذي كان

يتلقى الشكاوى والتظلمات المتعلقة بالفساد من الولايات، ويصدر الأحكام السلطانية التي تفيد بالوقائع وتطالب بالتحقيق أن يصدر الأوامر بالعزل للمسؤولين عن الفساد واسترداد ما اغتصبوه من الأوقاف.

فالعثمانيون حرصوا منذ قيام دولتهم على التعبير عن مدى حبهم واحترامهم للحرمين الشريفين، وذلك ببذل الكثير من الأموال والمساعدات لأهل مكة خاصة عند تعرضهم للكوارث والنكبات سواء كانت سيولاً أو قحطاً أو غيرها، وكانت هذه الرعاية لأهل مكة قبل وصولهم للعالم الإسلامي فأرسلوا الصرة إلى الحجاز في عهد السلطان بايزيد الأول 806هـ/ 1402م، أي قبل أن يتشرف العثمانيون بخدمة منطقة الحجاز بأكثر من قرن من الزمان، ثم أرسل السلطان مراد الثاني 825هـ-855هـ/1421م-1451م الصرة كان مقدارها عشرة آلاف ذهب وتلاهم السلطان مُحَمَّد الفاتح ، فأرسل سبعة آلاف ذهب إلى أهالي الحجاز ، والسلطان بايزيد الثاني 886-918هـ/1481-1512م، الذي أرسل أربعة عشر ألف دوقة ذهباً، كما أنهم أوقفوا الكثير من حاصلات قرى نائية بالأناضول على مكة المكرمة فكانت مكة والمدينة تعجان بالحركة ويعمهما الخير مع قدوم الصرة كل ذلك يدل دلالة واضحة على مدى ارتباط العثمانيين وتقديرهم للحجاز عامة ومكة المكرمة والمدينة المنورة على وجه الخصوص.

وكان للسلاطين العثمانيين أعمالهم الخيرية في الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولهم تعميراتهم في الحرم المكي، ورعاية أهله وتقديم كافة الخدمات والمرافق لهم .

أما المرأة فقد كانت محرومة من حقوقها في أوروبا، في حين أن المرأة في العصر العثماني تساهم بشكل كبير في إثراء الحياة الاقتصادية حيث كانت تشيد الأوقاف وتساهم في مساعدة أهالي المدينتين المقدستين مثل وقف خرم خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني 926هـ-974هـ/1520م-1566م (10).

وللوقف تنظيمات كثيرة منها أن هناك واقفاً، وموقفاً عليه، بالإضافة للوقف نفسه سواء كان منزل أو بستان أو غيره، ولابد أن يكون هناك وثيقة للوقف يحدد فيها شروطه، وناظراً يرعى الوقف، وأحياناً مجلساً للنظارة، وعاملين في الوقف، وأخيراً منتفعين منه (11).

وهو اسم مؤسسة دينية اجتماعية لعبت دوراً هاماً في منتصف القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن التاسع عشر الميلاد وهو عقد شرعي يخصص به الشخص أملاك منقولة، أو غير منقولة، أو شيء من هذا القبيل، وذلك بهدف التقرب من الله – عز وجل – أو أي هدف آخر، ويقوم الشخص بتخصيص الوقف لغاية دينية أو اجتماعية، وليس من الضروري تحقيق هذه الغاية على الفور، أو بشكل قاطع.

السلطان أحمد الأول :

تولى الحكم عام 1012هـ/1603م بعد وفاة والده مُحَمَّد الثالث 1003هـ-1012هـ / 1595م-1603م، وكان في الثالثة عشر من عمرهم وبضعة شهور، تولى الحكم في فترة غير مستقرة إطلاقاً، حيث كانت الحروب تعصف بالدولة العثمانية من عدة جهات ورغم صغر سنه عند توليه حيث لم يتجاوز 14 عاماً، إلا أنه أظهر نبوغاً وحكمة وتصرف وكأنه سلطان بالغ عاقل.

وأول أعماله قام بتحجيم نفوذ جدته صفية سلطان صاحبة النفوذ الكبير في الدولة إلى القصر القديم لمعارضته تدخل النساء في شئون الحكم. اشتهر بقوته وتمكنه من استعمال كافة أنواع الأسلحة بمهارة وقدرته الفائقة في ركوب الخيل. عرف أيضاً بجديته في رئاسة الدولة، فترك عادة سابقيه من السلاطين في عدم حضور جلسات الديوان وترك كل الأمور للوزراء، فدأب على حضور الجلسات بنفسه، كما اشتهر السلطان أيضاً بتدينه الشديد، لا يتناول المسكرات، وكان متديناً جداً، وكان يخرج متنكراً لتفقد أحوال الرعية، وبسيط في ملبسه، وعدو لسيطرة الحريم في السراي، بالإضافة إلى أنه عرف عنه اعتدال رأيه، عمل كل ما في وسعه لخدمة وحماية الدولة على الرغم من صغر سنة[12].

خدماته بالنسبة للحرمين الشريفين:

1. كان جداران الكعبة قد بدأ في التشقق بسبب بعض الأمطار التي هطلت عام 1019هـ/1610م، فلما وصل الخبر للسلطان أحمد الأول فكر في هد الجدار من الناحية الشمالية وإعادة بناءه مرة أخرى لكن شيخ الإسلام والعلماء عارضوا هذه الفكرة وجعلوه يعدل عن رأيه في هذا الخصوص خوفاً من احتجاج مسلمي العالم واقترح أن تحزم الكعبة بحزام من نحاس

قوي يشد جدارها، فوافق على هذا الأمر، وغلف جدران الكعبة بالذهب الخالص وبلغت نفقاته 80 ألف دينار، وعلى أي حال كان السلطان أحمد الأول يفكر في إعادة بناء الكعبة بحجارة موشاة بالذهب والفضة، ومنعه شيخ الإسلام[13].

2. ظهرت مشكلة بعد أن اكتشف السلطان أن المسجد الأزرق يحتوي على نفس العدد من المآذن من يساوي المسجد الحرام في مكة المكرمة. وصار غاضباً من هذا الخطأ ولم يهدأ حتى أوصى شيخ الإسلام بإقامة مئذنة أخرى في المسجد الحرام في مكة المكرمة بجانب المآذن الست الموجودة وقتها وتم حل المسألة.
3. أمر بنقل إحدى الماسات الكبيرة والتي كانت ملك لوالده السلطان مُحَمَّد الثالث 1003-1012هـ/1595-1603م، إلى المسجد النبوي في المدينة المنورة وأمر بأن توضع بجوار القبر الشريف.
4. في عهد أُرسلت أول مرة كسوة الكعبة في استانبول، وكانت سابقاً ترسل من مصر.
5. كما أرسل ثلاث قناديل مصنوعة من الذهب الخالص ومرصعة بالأحجار الكريمة، وكلف بها الشريف حسن ابن الشريف أبو نمي أمير مكة آنذاك[14] بتعليق اثنين منها داخل الكعبة المعظمة وتعليق الثالث في الروضة النبوية المطهرة[15].
6. وفي عام 1020هـ/1611م أمر السلطان أحمد بتجديد الميزاب الذهبي حيث قام بتغليفه بالفضة المحلاة بالذهب المموج وعمل بعض التعميرات على الكعبة المعظمة، كما تفضل بإصدار قطعتين من الماس قيمتهما ألف ذهب، وذلك لوضعهما داخل الحجرة النبوية الشريفة بجانب الكوكب الدري[16].
7. وضع شبكة من الحديد فوق بئر زمزم الشريف لحماية الناس من السقوط فيه. وقد صنعت الشبكة في استانبول وأرسلت إلى مكة المكرمة لوضعها داخل البئر على عمق متر واحد فقط من مستوى الماء.
8. أهدى إلى الروضة النبوية الشريفة مقصورة من الفضة مطلية بالذهب، هدية منه وأمر بنقل المقصورة القديمة لتوضع على مقبرته تبركاً بها.

9. إضافة إلى وضع الأعلام لمعرفة حدود الحرم الشريف.
10. أمر بتصنيع منبر جديد مصنوع من الرخام الأبيض الذي تم شحنه من اسطنبول حتى وصل إلى مسجد النبي واستبدال المنبر القديم ، وكان السلطان قد احتفظ بعمامة عليها نحت مع بصمة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وكان يرتديها في أيام الجمعة والأعياد بما يوضح أحد الأمثلة على المودة للنبي في التاريخ العثماني. كان محفور داخل العمامة قصيدة قام بتأليفها :

"إذا كان لي أن أحمل على رأسي مثل هذه العمامة إلى الأبد، في كل وقت معي، على رأسي مثل تاج، بصمة النبي مُحَمَّد، الذي لديه بشرة جميلة، أذهب يا أحمد، أفرك وجهك على أقدام تلك الوردة".

11. قام ببناء مدرسة بالقرب من باب الرحمة في المدينة المنورة وذلك لدراسة المذهب الحنبلي[17].
12. وقد رفع السلطان أحمد الأول اللوحة الفضية الموضوعة على باب الكعبة وأبدلها بلوحة أخرى من الذهب الخالص[18].

ومن هذه يتضح كيف أن السلطان أحمد الأول كان يقدم خدمات جليلة للحرمين الشريفين ويستجيب لطالبات الأشراف حرصاً منه على تقديم كل ما هو أفضل للحجاج. وكذلك دون تأخير وتأكد من صحة الطلبات.

ماه بيكركوسم:

يصفها المؤرخ التركي، يلماز أوزتونا، قائلاً : "كانت ذكية إلى درجة استثنائية، ماكرة ومراوغة، أستاذة في صنع خطط سياسية ومؤامرات متعددة الوجوه، مؤثرة ومقنعة في كلامها، كانت تعني بإرضاء الشعب، لذا تركت خلفها مؤسسات خيرية كثيرة ثروتها الضخمة جداً انتقلت إلى الخزينة العامة للدولة فأنعشتها"، مارست نفوذها بصورة غير مسبوقة أو متبوعة، ووصلت إلى قمة المجد والسلطة في الدولة العثمانية في مشهد استثنائي، وهي أكثر سيدة احتكرت منصب الأم" خلال مدة سلطنة ابنيها "مراد الرابع 1032-1049هـ/1623-1640م، وإبراهيم الأول 1049-1058هـ/1628-1640م، لفترة

امتدت لربع قرن من الزمان، وكانت نائبة السلطان لابنها "مراد الرابع" ثم حفيدها "مُحَمَّد الرابع 1058هـ – 1099هـ/ 1648م–1687م لما يقارب 12 عاماً، فتجمع بين يديها سلطات واسعة مكنتها من أن تكون ضلعاً أساسياً في السياسة العثمانية في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي.

عرف عنها ظرفها وخفة دمها ولطفها في معاملة الآخرين، وقد جلبت بهذه الصفات إضافة إلى جمالها انتباه السلطان أحمد الأول، عقب توليه العرش بعد وفاة والده السلطان مُحَمَّد الثالث، وتفوقت على حريم القصر، فتزوجها السلطان، وقد لمع نجمها أكثر عقب ولادة ابنها مراد ثم إبراهيم، وأخيراً ابنها قاسم، وأنجبت من البنات فاطمة وعائشة، وبذلك زاد نفوذها وتفوقت على جميع نساء القصر. وبحسب التقاليد العثمانية أرسلت عقب وفاة زوجها السلطان أحمد الأول إلى القصر القديم الكائن في منطقة بايزيد، لكن إقامتها هناك لم تطل أكثر من ستة سنوات عادت بعدها والدة سلطان لتمارس سلطات سياسية تاقت نفسها لها.

وبدأت الاستعداد للقيام بهذا الدور قبل وفاة زوجها السلطان أحمد الأول حيث قامت بعدة نشاطات مختلفة لأجل إعداد أولادها لتوليه الحكم؛ لأن السلطان أحمد كان له ولدان أكبر في العمر من أبنائها، فحاولت الاقتراب من كبار رجال الدولة بشتى الطرق وذلك لاستمالة تأييدهم ودعمهم، وعقب وفاة زوجها السلطان أحمد في أواخر 23 من ذي القعدة 1026هـ/ 23 نوفمبر 1617م، قامت كوسم سلطان بدور كبير في تنصيب الأمير مصطفى شقيق السلطان أحمد الأول على عرش السلطنة بدلاً من الأمير عثمان أكبر أبناء السلطان أحمد الأول من زوجته الأولى "ماه فيروز" وكانت كوسم سلطان تمهد الطريق أمام أولادها الذين كانوا في سن صغيرة في ذلك الوقت؛ لأنها تعلم أن مصطفى لا يستطيع الاستمرار كثيراً في الحكم لأنه ضعيف الشخصية، بالإضافة إلى أنه كان عقيماً، فالحكم سيرجع إلى أبنائها آجلاً أو عاجلاً.

وبالفعل لم تدم سلطنته كثيراً؛ إذ خُلع وجاء بعده النجل الأكبر للسلطان أحمد الأول وهو عثمان الثاني من زوجته الأولى ماه فيروز.

وقد أقامت كوسم سلطان في القصر العتيق خلال حكم السلطان مصطفى والسلطان عثمان الثاني، وانشغلت بتربية أولادها وإعدادهم للسلطنة. وبعد فترة قصيرة لم تدم أكثر من خمس سنوات خلع السلطان عثمان الثاني، ثم قتل إثر مؤامرة غادرة، فانفتح الطريق أمام الأمير مراد لتولي الحكم في 15 من ذي القعدة 1032هـ/9 سبتمبر 1623م، فانتقلت كوسم سلطان إلى طوب قابي سراي ضمن مراسيم خاصة رسمية وفخمة بصفتها والدة السلطان مراد الرابع الذي كان في الثانية عشرة من العمر عند ارتقائه العرش، وكان عديم التجربة والخبرة السياسية، ثم حدث أن توفيت "خانذان خاتون" والدة السلطان أحمد ففتح بذلك المجال أمام "ماه بيكر كوسم سلطان" وغدت صاحبة السلطة في الدولة العثمانية لمدة عشر سنوات، بحيث كانت تشارك في الاجتماعات مع أركان الدولة وهي ترتدي الحجاب كاملاً، ويمسك بطرف ثوبها السلطان الطفل مراد الرابع، وتسهم في حل شؤون الدولة وإصدار القرارات، وقد تربى السلطان مراد الرابع على يد أم قوية الشخصية لا تتردد في عمل أي شيء في سبيل السياسة والسلطة، وكان السلطان الصغير يرافق والدته في هذه الاجتماعات ليتعلم أمور الدولة، وهو ينتظر من جهة أخرى اليوم الذي يتسلم فيه الإدارة من والدته، لكن كوسم سلطان لم تكن تنوي أبداً تسليم إدارة الدولة إلى ابنها السلطان، ومع ذلك فإن الأحداث الداخلية التي تطورت في استانبول والأناضول أدت إلى عزل الصدر الأعظم خسرو باشا، وتعيين طوبال رجب باشا في منصب الصدارة، والذي قام بمناورات عديدة لكسر نفوذ كوسم سلطان وإعطاء الإدارة إلى السلطان مراد الرابع. ونجح في ذلك عام 1041هـ/1631م، ومع هذا كان السلطان يستمع إلى والدته، إذ إنه لم يكن قد تخلص من تأثيرها، حتى إنها كانت أثناء رحلاته الخارجية هي التي تدير شؤون الدولة العثمانية، وفي الوقت ذاته حاول منعها من التدخل في السياسة، بل وهددها بإعادتها إلى القصر العتيق، وبعد وفاة السلطان مراد الرابع عام 1050هـ/1640م اعتلى عرض الدولة العثمانية الابن الآخر لكوسم سلطان، وهو إبراهيم، إلا أنه كان يعاني من مرض الشقيقة الذي جعله عصبياً دائماً لا يستطيع القيام بعمل أي شيء، وهذا ما جعل المستشرقون يتهمونه بالجنون، وحقيقة الأمر

أنه كان يصاب بصداع شديد لا يحتمل. مما أدى إلى تصاعد مسؤولية كوسم سلطان، حيث بدأت تمسك إدارة الدولة بيدها مرة أخرى، وقد قامت بتقديم عدد كبير من النساء والجواري إلى ابنها السلطان لينجب ذكراً؛ وذلك لأنه كان الرجل الوحيد المتبقي من نسل آل عثمان، وإذا لم ينجب ضاع ملكهم، وهي بذلك قدمت خدمة للدولة العثمانية بالحفاظ على نسل آل عثمان، ولكن الازدياد المفرد في عدد النساء والجواري أدى إلى تدخل بعضهن في شؤون الدولة العثمانية مما أضعف سلطة كوسم سلطان في البلاد العثماني، أضف إلى ذلك أن السلطان إبراهيم الأول أصبح لا يستمع إلى والدته نتيجة وقوعه تحت تأثير نسائه وجواريه وعلى رأسهم خديجة تورخان وضاق ذرعاً بأعمالها، فقام بإبعاد والدته وإجبارها على الإقامة في جنينة اسكندر جبلي. وهنالك رواية تفيد بأن السلطان أراد أن ينفي والدته إلى جزيرة رودوس للتخلص منها، فقامت كوسم سلطان بالاتفاق مع رجال الدولة وشيخ الإسلام بخلع السلطان إبراهيم بحجة جنونه في 16 رجب 1058هـ/ 8 أغسطس 1648م، وبتولية حفيدها مُحَمَّد ابن السلطان إبراهيم الذي كان عمره سبع سنوات في مقام السلطنة[19]. وقد ساءت أحوال الدولة من جراء تدخلها في السياسة والحكم، حيث وزعت المناصب حسب هواها، وانتشرت الفوضى في الإدارة، مما نتج عنه حتماً خلع ابنها السلطان إبراهيم الأول.

ومع حبها للحكم والسياسة تميزت بالخبرة والمعرفة والحنكة السياسية، فنجد أنها عالجت كثيراً من مشاكل الحكم والإدارة بشخصية قوية وعقل مفكر، فمثلاً استطاعت أن تقضي على تمرد للإنكشارية في عهد ابنها السلطان مراد الرابع، حينما لم تدفع لهم العطايا المتبعة نظراً للقصور المالي في خزينة الدولة، فأمرت الصناع بأخذ مقدار من الأواني الذهبية والفضية من القصر السلطاني وصهرها لتحويلها إلى نقود منحتها للإنكشارية، وبذلك قضت على تمرد اعتادوا عليه[20].

كان التقليد السائد في البلاط العثماني يقرّ انتقال والدة السلطان المتوفي أو المخلوع إلى القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد، وعلى سحب يدها من شؤون الدولة، حيث تأخذ مكانها وصلاحياتها والدة السلطان الجديد، ولكن كوسم سلطان لم تفعل ذلك، إنما بقيت في طوب قابي سراي جدة للسلطان الجديد مُحَمَّد الرابع ذي السبع أعوام؛ إذ أصبحت صاحبة السلطة في القصر، وواصلت تدخلها في شؤون

الدولة في السنوات الأولى من حكم حفيدها. بينما كانت خديجة تورخان سلطان والدة مُحَمَّد الرابع شابة وعديمة التجربة، فلم تتمكن من الوقوف أمام رغبات كوسم سلطان.

وبدأ الناس يحترمونها أكثر وخوطبت باسم الوالدة المعظمة" فكانت تدير الدولة العثمانية كما تشاء، ونالت دعماً من الإنكشارية، لكن بمرور الزمن استاءت خديجة تورخان والدة السلطان مُحَمَّد الرابع من تسلط كوسم ودكتاتوريتها؛ لأن خديجة تورخان بدأت بالتدخل تدريجياً في أمور الدولة العثمانية على اعتبار أنها والدة السلطان، ولكن لأنها عديمة الخبرة السياسية، فقد ظهر التنافس الشديد بين الجدة والوالدة، مما أدى إلى نشوب الاضطرابات في الحريم العثماني الذي انعكس سلباً على إدارة الدولة العثمانية، وقد انقسم رجال الدولة إلى قسمين: قسم يساند ماه بيكر كوسم، وقسم آخر يساند خديجة تورخان سلطان ورعان ما دب الخلاف بين أتباع كل امرأة فزاد الفساد وانتشرت الرشاوي والدسائس في الحريم بنسبة كبيرة .

وقد استمت ماد بيكركم قوتها من الإنكشارية[21]. أدى ذلك إلى اختلال النظام في البلاد العثماني حتى إن كوسم سلطان قد فكرت في تسميم حفيدها مُحَمَّد الرابع وقتل طورخان سلطان، ولكن لم تستطع تحقيق هدفها لأن طورخان سلطان كانت أسرع منها حيث قامت بخنقها ليلاً والتخلص منها عام 1062هـ/1651م، وكان ابنها السلطان مُحَمَّد الرابع قد بلغ العاشرة من العمر آنذاك. فانتقلت إدارة الدولة العثمانية من يد كوسم سلطان التي كانت تتصف بالذكاء والحنكة السياسية إلى يد طورخان سلطان التي كانت تهدف إلى تعديل الأمور في الدولة، ولكنها كانت عديمة الخبرة والمعرفة في الإدارة والسياسة فاستمرت الرشاوي والفوضى في الدولة في عهدها أيضاً إلى أن جاء الوزراء من أسرة كوبرللي إلى الصدارة العظمى؛ وقد استطاع هؤلاء أن يأخذوا زمام الأمور بأيديهم ويضعوا حداً لسلطنة النساء عام 1067هـ/1656م. وبعد هذا التاريخ انتهى دور النساء في شؤون الدولة العثمانية ولم يُشاهد دورهن في الإدارة باستثناء بعض زوجات السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد على الرغم من أن تدخلهن في أمور الدولة كان مؤقتاً ولم يدم طويلاً[22].

وقد قامت ماه بيكر كوسم بجدارة بدور أساسي في المؤامرات السياسية إبان سيطرتها على الحكم، إذ كانت ذكية إلى درجة استثنائية، ماكرة ومراوغة، أستاذة في صنع الخطط السياسية والمؤامرات متعددة الوجوه، مؤثرة ومقنعة في كلامها، اعتنت بإرضاء الشعب؛ لذا تركت كثير من المؤسسات الخيرية التي استفادت منها شريحة كبيرة من الفقراء والمحتاجين.

قد كانت هذه المرأة ذات ثراء واسع، حيث امتلكت كثيراً من الأراضي الزراعية في أماكن عديدة من الدولة العثمانية وخاصة في الأناضول وقبرص، كانت تهدى إليها من الدول المجاورة، إضافة إلى أنها عند وفاتها انتقلت صناديق مجوهراتها القيمة وأموالها التي يقال أنها بلغت عشرين صندوقاً مليئاً بالعملات الذهبية" السلطاني" إلى خزينة الدولة العثمانية[23].

كانت تؤدي الأعمال الخيرية بنفسها حيث تذهب سنوياً لزيارة السجون، وتقوم بتسديد قروض المساجين لإنقاذهم من العقوبة، بالإضافة إلى توزيع الأعطيات والهدايا عليهم، كما أن حبها للخير دفعها أيضاً إلى أن تؤدي دور الأم الحنون للفتيات الفقيرات المقبلات على الزواج؛ إذ تقوم بإعداد جهاز العرس، والإشراف على تزويجهن ولم يقتصر الأمر على الفتيات الفقيرات فقط بل حتى الجواري اللاتي يعملن بخدمتها حيث تزوجهن على نفقتها الخاصة[24].

كما أسست مؤسسة خيرية باسم "عطايا السادات" كان يستفيد منها حوالي 200 فقير ومسكين، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الأسبلة التي أنشأتها في مختلف أحياء استانبول، مثل سبيل بجوار جنيلي جامع "جامع الخزف" وسبيل بجوار تكية أبو الهدى، وسبيل آخر بجوار تكية معمار عجم. بالإضافة إلى سبيل كوسم سلطان في حي يني قابي، وأخيراً سبيل ملحق بمسجد الصدر الأعظم أوزد ميرأ وغلي عثمان باشا، فضلاً عن تأسيسها أوقافاً في قبرص وعدة جزر أخرى[25].

وأنشأت جنيلي جامع Cinili Comi Kulliyesi أي جامع الخزف 1050هـ/1640م، وقد أحاطته بمدرسة ومكتبة وخصصت أعمالاً خيرية للصرف على أجور الأئمة ، أما عن المدرسة فقد أدت دورها العلمي، والحقت بها مدرسة للأطفال وداراً للحديث ، وأنشأت حماماً مزدوجاً بجوار الجامع ،

وهو مقسم إلى قسمين : قسم للنساء وقسم للرجال، وانشأت مسجد قواغي في نهاية الأناضول بجانب البسفور، وأنشأت كذلك نزلاً عرف باسم " والدة خاني " قدم خدمات لكل الأشخاص والقوافل ، دون النظر إلى لون أو دين أو لغة أو ثقافة ومذهب، فضلاً عن أعمال خيرية موسمية توزع على أكثر من مائتي رجل وامرأة في الأشهر المباركة شعبان ورمضان[26].

وخصصت مبالغ معينة لأعمال عينية ، وجزءً آخر لأعمال معنوية كقراءة القرآن الكريم، وقامت بتمويل مشاريع الري في مصر، بالإضافة إلى إنشائها لخزانات مياه في طريق الحجيج ، حتى لا يهلك الحجاج نتيجة لقلة المياه وشدة الحرارة ، وترسل الأموال إلى مكة والمدينة لمساعدة الفقراء والمساكين مع الصرة سنوياً وكانت ترسل الكسوة لمائة فقير من فقراء مكة ومثلها لفقراء المدينة حتى إنها كانت تقدم إعاشة للحجاج[27].

ورغم أن ماه بيكر كوسم والدة سلطان كانت متسلطة ومستبدة، فغن هذا لا يمنع أنها أحست بشدة بحاجات الفقراء والمحتاجين وصرفت جزءًا كبيراً من أموالها على أعمال الخير، وهذا ما يجب أن يذكره لها التاريخ .

الأميرة فاطمة بنت السلطان أحمد الأول :

ابنة ماه بيكر كوسم وقدت ورثت عنها طباعها حيث كانت ذات شخصية وطباع مشابه لوالدتها السلطانة كوسم فكانت ذات مزاج صلب قوية . وكانت ذات تأثير كبير في الديوان بسبب زواجها من أقوى الوزراء وأكثرهم شجاعة لها نفوذ سياسي وصنفت الثامنة في قائمة أقوى حريم العثمانيين، تزوجت من كارا مصطفى بشا ولي مصر فمارست قوة عظمى ونفوذ واسع ابتداء من مصر إلى الدولة العلية العثمانية اشتهرت بجمالها الآخاذ فكانت تمتلك عينين زرقاوتين لامعتين وشعر كستنائي اللون لطيفة القوام وكانت تتميز ببياض في البشرة مع الاحمرار الوردي وهي من أجمل بنات السلطان أحمد الأول داهية وحكيمة وذات ذكاء خارق. لديها أوقاف والاعمال الخيرية كانت تستخدم الأموال لمساعدة الفقراء

والمحتاجين وقيل انها كانت تستخدم المال أيضاً لإصلاح المساجد والمدارس الدينية في الدولة العثمانية ومصر حتى لقبت(بصاحبة الخيرات) (28).

أطلق عليها (المعجزة) لما قدمته من فضل في الدولة العثمانية ومصر . وكانت لها أعمال خيرية هائلة وضخمة في مصر وقد ساهمت في الإصلاحات بمصر من النواحي الاقتصادية (29).

وعلى الرغم أنها كانت ابنة سلطان وأخت سلطانين إلا أن ذلك لم يمنعها من إقامة خيرات لنفع الناس دون أن تتأثر بما حولها .

ملحق بالأوقاف الغريبة في العصر العثماني :

1- وقف بين الطيور في اسطنبول : وهو مأوى وعشش للطيور بنيت من الحجر بطريقة هندسية رائعة وكأنها تحفة فنية نادرة في الشكل والمقصد، تزيد المدينة جمالاً ورونقاً؛ حيث توفر الحماية للطيور، وتؤمن متطلباتها من مأكل ومشرب، شيدت من أموال الوقف ويصرف عليها كذلك من المؤسسة الوقفية في الحضارة العثمانية. وما زال هذا الوقف متعة للناظرين والسائحين.

2- خان المسافرين (كروان سراي) : وهو مأوى يوفر لابن السبيل والمسافرين سبل الراحة والمعيشة والأمان، من إيواء وطعام وشراب واستحمام. ويوفر سبل الراحة لثلاثة أيام، وبعدها يترك المجال لغيره ليستفيد مسافر آخر من ذلك الخان.

3- وقف (لكل محتاج فاكهة) : وخصص هذا الوقف لتوفير سلال الفاكهة لكل محتاج ومريض؛ لأن الفاكهة في موسمها تكثر ويتمتع بأكلها أهل القدرة على الشراء، وأما الفقير فالوقف يوفر له ولأطفاله سلة من الفاكهة بين حين وآخر.

4- وقف إطعام الطيور في وقت الثلوج : وخصص هذا الوقف ليوفر الذرة ونثرها على الثلوج لكي لا تموت الطيور من الجوع في فصل الشتاء وعندما يكسو الثلج الأرض وتنقطع بالطيور سبل التقاط الطعام، وكان يموت بعض منها من الجوع.

5- وقف تجهيز العروس: وهذا الوقف خصص لتوفير جهاز للعروس الفقيرة التي تريد الزواج، ولا تجد ما يجعلها كمثيلاتها من النساء، فتأخذ ما تريد من باب الإعارة من كساء ومجوهرات وأدوات للتزين.

6- وقف الحبر: وهو وقف خصص لتزويد العلماء والنساخ بالحبر حتى يستمر تأليفهم ونسخهم للكتب، وهذا من تقديرهم لمكانة العلم والعلماء، ونشر العلم بنشر الكتب.

7- وقف أصحاب القوارب والحمالين : وقد خصص لمساعدة كبار السن من أصحاب القوارب والحمالين، الذين لا يتمكنون من الاستمرار في العمل بسبب كبر السن، فيحفظ كرامتهم ويرعى حاجاتهم .

8- وقف تدريب النساء على الحرف والعمل : لأن المساعدات بلا مقابل تؤثر في النفوس السوية، فلابد من العمل بمقابل، فهذا الوقف يدرب النساء، ثم يساعدهن في امتهان صنعة وحرفة من الحرف، وتعمل في هذا المجال.

9- وقف مدرسة جوشكن : وهي من المدارس الوقفية العجيبة والرائعة في اسطنبول، تحوي 8 مبان، على تلة مرتفعة، مطلة على منظر خلاب، وهي مدرسة لتعليم الفتى والفتاة مجاني[30].

الخاتمة

لقد كان للحرمين الشريفين أثر مهم وبالغ على السلاطين العثمانيين حيث أولوه اهتمام بالغ تمثل في سرعة الاستجابة لأي طلب من قبل الأشراف، إضافة إلى أنه كان دائماً يمثل القمة في العطايا والهبات والاهتمام وظهر ذلك الاهتمام في صفحات البحث حيث صور اهتمام وخدمات السلطان أحمد الأول للحرمين الشريفين .

ثم جاء الوقف في الدولة العثمانية من الموروثات التي انتقلت من جيل إلى جيل، وقد كتب مُحَمَّد الفاتح في وثيقة وقفياته: بأنه قد أوقف ذلك الوقف من ماله الخاص الذي اكتسبه بفضل من الله تعالى ثم عرق جبينه، وكان مُحَمَّد الفاتح حتى عندما يحاصر دولة ما، أو ينتظر الإمداد لفتحها، يأمر جنوده بشق الطرق وحفر الآبار ويقيم فيها الأوقاف، وحينما يسأل عن ذلك الفعل كان يقول: نحو مأمورون بإعمار الأرض .

فحينما كانت المرأة محرومة من حقوقها في أوروبا، كانت المرأة في العهد العثماني تشيد الأوقاف وتنوع منافعها، وتبدع في إخراج الجديد منها، وكان التنافس لعمل الخير بين النساء فاعلاً؛ ففي السجلات العثمانية أكثر من 2500 وثيقة وقف لنساء فاضلات. ولم تكن المرأة مهمشة كما يحلو للغرب وصفها.

الهوامش

(1) دنيا : شوقي أحمد أثر الوقت في إنجاز التنمية الشاملة، ضمن مجلة البحوث الفقهية المعاصر، (عدد 24/ السنة السادسة 1415هـ/1995م)، ص122.

(2) انكلدلهارد ، تركيا وتنظيمات دولت عثماني نك إصلاحي، ترجمة : علي رشاد، (اسطنبول، مطبعة قناعت كتب خانة سي، 1978م)، ص161 .

(3) نفس المرجع السابق، ص162.

(4) **السلطان أحمد الأول :**

ولد السلطان أحمد الأول في قصر مانيسا عام 999هـ/1590م جلس على عرش الدولة العثمانية بعد ولاية للعهد دامت سنة وستة شهور، وكان عمره لا يتجاوز سن 13 سنة و8 شهور، حتى أنه لم يرسل إلى مانيسا كعادة السلاطين العثمانيين في تولية ولي العهد لمانيسا لصغر سنه، ولهذا كان أول سلطان يعتلي العرش دون تدريب على الحكم، أبرز الأحداث في عهده نهاية الحرب العثمانية الألمانية بتوقيع معاهدة Sitvarorok عام 1015هـ/1606م بعد حرب استمرت 13 سنة و4 أشهر.

وقد كانت بداية الحرب العثمانية الصفوية والتي انتهت بصلح معاهدة أردبيل عام 1028هـ/1618م أي بعد وفاة السلطان أحمد الأول بعام ، توفي عن عمر 27 عام و7 أشهر بعد مرض أصاب بطنه يصاحبه حمى دامت عدة أسابيع، على الرغم من صغر سنة عندما تولى العرش وقصر مدة حكمه فقد توفي صغير السن إلا أنه نضج سريعاً ويتضح ذلك في القرارات السياسية التي اتخذها .

أوزتونا يلمازا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الطبعة الأولى، (استانبول : منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، 1408هـ/1988م) ج1، ص444-454.

(5) ماه بيكركوسم :

تعد من أشهر حريم الأسرة العثمانية على الرغم من اسمها ماه بيكر وفقاً لعادات وتقاليد الأسرة العثمانية، يعني ضوء القمر، إلا أنها عُرفت عموماً باسم "كوسم سلطان" وقد ورد اسم ماه بيكر في أغلب المصادر العثمانية التاريخية عند الحديث عنها، ونالت هذا الاسم لجمالها وظرفها وذكائها، أما عن اسم كوسم والذي شاع استخدامه في القصر السلطاني، فهو يدل على أنها كانت ذات بشرة بيضاء ناعمة وملساء خالية من الشعر، هذا إضافة إلى أن كلمة كوسم تعني أيضاً الكبش الذي يسير في مقدمة الأغنام، مما يشير إلى مطامحها في الرئاسة والقيادة .

لا تتوفر معلومات ونافية عن طفولتها أو أسرتها، أو عن زمن دخولها ووصولها إلى القصر العثماني، أما عن أصلها فقد اختلف حوله المؤرخون، فمنهم من أرجع أصلها إلى الروم وأنها ابنة أحد القساوسة الرومان الذي يمتلك مقاطعة قرب استانبول، وكان اسمها أناستيا، أما الفريق الثاني، فيرجح أنها ابنة قسيس أرثوذكسي من البوسنة، وأن آغا البنات أحضرها من أحد ولاة البوسنة .

ومن المحتمل أن ولادتها تصادف عام 988هـ/1589م، ووصولها ودخولها إلى القصر العثماني في حدود عام 1018هـ/1608م-1610م، وقد أهديت إلى القصر العثماني من قبل والي بوسنة في زمن السلطان محمد الثالث، وكان عمرها آنذاك في حدود 6-7 سنوات .

عرف عنها ظرفها وخفة دمها ولطفها في معاملة الآخرين، وقد جلبت بهذه الصفات إضافة إلى جمالها انتباه السلطان أحمد الأول، عقب توليه العرش بعد وفاة والدة السلطان محمد الثالث، وتفوقت على حريم القصر، فتزوجها السلطان، وقد لمع نجمها أكثر عقب ولادة ابنها مراد ثم إبراهيم، وأخيراً ابنها قاسم،= =وأنجبت من البنات فاطمة وعائشة، وبذلك زاد نفوذها وتفوقت على جميع نساء القصر، وبحسب التقاليد العثمانية أرسلت عقب وفاة زوجها السلطان أحمد الأول إلى القصر القديم الكائن في منطقة بايزيد، لكن إقامتها هناك لم تطل أكثر من ستة سنوات عادت بعدها والدة سلطان لتمارس سلطات سياسية تاقت نفسها.

Yilmaz Oztuna, Osmanli Hareminde Ue Hasedi Sultan: Istanbul 1988, S. 80.

أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ، ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين، ص294.

M.Cavid Baysun : Kosem Sultan, the Encyclopaedia of Islam, Voume VI, S. 272.

M. Cagatay Ulucay, Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari, S. 48.

أماني جعفر الغازي : الملامح التاريخية للحريم العثماني، الطبعة الأولى، (جدة: مطابع السروات، 1435هـ/1214م، ص110-112.

(6) فاطمة بنت السلطان أحمد الأول : ولدت السلطانة فاطمة عام 1015هـ/1606م وترعرت في قصر توب قابي سراي حيث كان ولدها السلطان أحمد الأول، تزوجت 6 مرات واحد منهم كان صدراً أعظم، ولم تنجب. يلمازا أزوتونا : مصدر سابق، ج1، ص455.

(7) قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت، مطبعة المتوسط، 2003هـ ، ص14.

(8) وديع أبو زيدون: تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، الطبعة الأولى، عمان، المكتبة الأهلية للنشر والإعلان، 2003هـ ، ص30.

(9) شوقي أحمد دنيا : مرجع سابق ، ص67

(10) **خرم خاصكي سلطان :**

خرم خاصكي سلطان زوجة سليمان القانوني Kourrem وهي لفظة تركية معناها الباسمة أو ذات الوجه الباسم .

وخرم :معناها السرور، السعيد الفرح، المرح .

خاصكي : صيغة تركية للكلمة الفارسية " خاصكي " المأخوذة من الكلمة العربية "خاص" وهي تطلق على العاملين في الخدمة الشخصية للسلاطين العثمانيين، ثم تطور اللفظ وأصبح يستخدم لمن يعمل في خدمة القصر العثماني منذ ق 10هـ/16م، وأول من استعمله من نساء السلاطين كانت خرم خاصكي زوجة السلطان سليمان القانوني، ثم صار يطلق على الزوجة أو المستولدة التي تنجب ولد ذكراً.

أما عن مسألة أصلها فقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين؛ إذ رجح بعضهم أنها من أصل روسي، وأبوها قس روسي، مستدلين بذلك من اسمها روكسلانه الذي يعني الروسية، وأكد بعض المؤرخين أنها تنحدر من أصول إيطالية أو فرنسية، لكن هذا احتمال ضعيف حيث إنه لم يكن من السهل الإيقاع بهن في الأسرة، كما أنهن لا يقدمن كهدايا للقصر السلطاني حتى يصلن إلى الحريم العثماني، فضلاً عن أنه في= =تلك الفترة لم يكن هناك معارك دائرة مع هاتين الدولتين حتى يصبح من المحتمل سقوط بعض الأسيرات منهن.

وعلى الرغم من هذه الاختلافات، فإن المرجح رأيان :

أولهما : أنها وقعت أسيرة بيد القائد إبراهيم باشا في إحدى الحملات العسكرية على بلاد السلاف، وعندما التمس منها الفطنة والذكاء قدمها هدية إلى السلطان سليمان القانوني .

ثانيهما : أنها وقعت أسيرة أيضاً في أيدي تتار القرم في إحدى غاراتهم، وهي ابنة راهب كاثوليكي أوكراني من أصل سلافي فقير الحال يعيش في منطقة روغاتين التابعة لدولة بولندا، وفي الوقت الحاضر هذه المنطقة تابعة لأوكرانيا، واسمها الحقيقي الكسندر السيوسكا، وقد ورد اسمها في المصادر الغربية على شكل : روسا، روزا، روسانا، رفزيا، روكسلانه، وهذا النطق الأخير الأكثر شيوعاً واستخداماً، ثم قدمت هدية إلى القصر السلطاني.

وهذا الرأيان أكثر الآراء رجاحة فقد اتفقا على أنها وقعت أسيرة، ثم قدمت كجارية للقصر السلطاني، وكانت صغيرة السن ومن أصل سلافي من أوكرانيا.

وقد وصلت إلى البلاط العثماني بصفة جارية في عمر يتراوح بين 14–17 سنة، ويشار إلى أنها ولدت عام 910هـ/1504م وأطلق عليها اسم خورم لأنها تميزت بالمرح، وخفة الظل، على الرغم من أنها لم تكن جميلة، لكن لياقة جسمها وبياض بشرتها، وعيونها الزرقاء والشعر الأحمر الذي يحيط برأسها في ضفيرتين صغيرتين عوض عن عدم جمال ملامحها بالإضافة إلى تمتعها بحديث ساحر وفكاهة حاضرة ونظرات مليئة بالمعاني تلفت إليها الانتباه فوراً، وقد قدمت هدية إلى الأمير سليمان بن السلطان سليم الأول من قبل حفصه سلطان "والدة سليمان وزوجة سليم الأول".

كان لها الضلع الرئيسي في المؤامرة التي حيكت ضد الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان القانوني.

وعلى الرغم من الدور السيء الذي لعبته في مؤامرة مقتل الأمير مصطفى، إلا أنها كانت أول امرأة من الحريم العثماني تمارس شؤون السياسة والحكم، حيث أسهمت خرم سلطان ببعض النشاطات الدبلوماسية فقد راسلت أخت الشاه طهماسب الصفوي، وعندما أرسل الشاه طهماسب الهدايا إلى السلطان القانوني بمناسبة افتتاح جامع السلمانية في استانبول، قامت خرم سلطان بكتابة خطاب الشكر له.

في ذات الوقت كان لخرم سلطان أعمال خيرية وحسنة، حيث شيدت كثيراً من المؤسسات الخيرية والأوقاف لرعاية الفقراء والمحتاجين، من أهمها : جامع الخاصكي الذي يضم حوله مدرسة ودار لإطعام الفقراء، وداراً للشفاء، ولا يزال الحي الذي بني فيه الجامع يعرف بحي الخاصكي، وقامت كذلك بتجديد تكية للمحتاجين حولتها إلى مدرسة، إضافة إلى تشييدها حماماً يعرف باسم حمام الخاصكي بالقرب من طوب قابي سراي، كما قامت بحفر الآبار الخيرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، وأنشأت أوقافاً تضمن إيرادات عالية لتلك الأعمال الخيرية.

وحوت الوقفية الخاصة بها على تفاصيل مفيدة جداً عن كيفية إدارة أوقافها، حيث أسست مؤسستين خيرتين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأوقفت عليها كثيراً من الأراضي في قرى مصر للإنفاق عليها من ريعها، وكثيراً من الدور والحوانيت في مكة المكرمة بكل ما فيها من أدوات ومخازن= =وغيرها، بالإضافة إلى بئر ماء وصهريج، وكذلك سفينتين في قناة السويس مع جميع آلاتهما وأدواتهما ولوازمهما لنقل الغلال التي تنتجها القرى الموقوفة في مصر إلى مينائي ينبع وجدة، مع جميع لوازم المؤسستين الخيرتين في مكة والمدينة.

توفيت خرم سلطان في استانبول في 6 رجب 966هـ/15 أبريل 1558م، وكان عمرها 55 عاماً، ودفت في فناء جامع السليمانية، ثم قام السلطان سليمان القانوني بإنشاء قبة ضخمة على قبرها، وهذا بالطبع مخالف للشرع ولكنها كانت عادة لديهم .

بعد وفاتها تولت زمام الأمور في الحريم ابنتها مهرماه التي سيطرت على الشؤون السياسية وأثرت بشكل مباشر على الصراع الدائر بين سليم الثاني وبايزيد أخويها.

Tahsin Omer Tahaoglu, Istanbul' da Osmanli Turbelerinin Tipolojisi, I , U. Doktora Tezi, 1988, S. 127-133.

ماجدة مخلوف: أوقاف نساء السلاطين العثمانيين وقفية زوجة السلطان سليمان القانوني على الحرمين الشريفين، ط1، القاهرة: دار الآفاق العبية، 1427هـ/2006م، ص15–16.

Cagatay Ulucay. Haremden Mektuplar, Istanbul 1964, S. 80-95: Cagatay Ulucay, Osmanli Saraylarinda Harem Hayatinin Ic, Yuzu, Istanbul 1959, S. 82-84. S. 34.

أماني جعفر الغازي: مرجع سابق، ص107–109.

(11) ناصر سعيدوني : أنواع الأراضي في القوانين العثمانية : شمال إفريقية، (ضمن كتاب الإدارة المالية في الإسلام، من منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية – عمان، 1999م)، ص75.

(12) يلماز اوزتونا : مصدر سابق ، ج1، ص454 .

(13) السباعي : أحمد، تاريخ مكة، (الطبعة الثانية، مكة المكرمة : دار قريش، 1382م) ج2، ص117. الغازي: عبد الله محمد، إفادة الأنام في أخبار البلد الحرام، تحقيق : عبد الملك بن دهيش، (الطبعة الأولى، مكة المكرمة: مكتبة الأشري، 1430هـ/2009م)، ج2، 231. ج1، ص321.

Aslam : Sadik Er : Osmanlilaain Hareme Yn-I > Serifeyn Hizmetleri Istunbul, 1980, 213.

يلماز طرجان : الكعبة المشرفة ، دراسة أثرية لمجموعة أقفالها ومفاتيحها المحفوظة في متحف طوب قابي باستانبول، ترجمة : تحسين عمر طه أوغلي (د.ط، استانبول : مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 1993) ص15.

(14) الشريف حسن بن أبي نمي : كان أميراً على مكة المكرمة 961–1016هـ/1593م/1607م، وكان قد أرسل إلى السلطان أحمد الأول هدية وخطاب يلتمس فيه تجديد كسوة الكعبة الداخلية والخارجية، وأما عن الهدية فهي عبارة عن أقمشة هندية وألف قطعة حرير ملونة طول كل قطعة خمسين ذراعاً، وعشرة قناطير من أجود أنواع العود وفواكه وأواني من البورسلان.

جارشيلي : إسماعيل حقي أوزون : أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمة : خليل علي مراد، (الطبعة الأولى، لبنان: الدار العربية للموسوعات، 1424هـ/2003م)، ص77.

(15) المكي: محمد الأمين؛ خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج، ترجمة : ماجدة مخلوف، (الطبعة الثانية، القاهرة: دار الآفاق العربية، 1426هـ/2005م)، ص42.

(16) عبد الله الغازي : مصدر سابق ، ج1، ص393.

Sadik Er aslan, osmanli ladin, s 225.

(17) محمد الأمين المكي : مرجع سابق، 43. الوكيل : محمد السيد، المسجد النبوي عبر التاريخ، (الطبعة الأولى، د.م، 1988م)، ص172–173.

Ulmer Mustafa : Osmanli Devleti, nde Haremeyn Vakiflar, Istanbul, 1970, 231.

محمد الأمين المكي : مرجع سابق ، ص43.

Aslansadik Er : Osmanlilarin, S 225.

(18) طرجان يلماز ، مرجع سابق ، ص16.

Ulmer Mustafa : Osmanli Devleti, nde Haremeyn Vakiflar, Istanbul, 1970, # 231.

محمد الأمين المكي : مرجع سابق ، ص43.

Aslansadik Er : Osmanlilarin, S 225.

(19) Yilmaz Oztuna, Osmanli Hareminde Uc Haseki Sultan : Istanbul 1988, S. 104.

أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص113-114.

(20) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1، ص89.

M. Gagalay Ulucay : Padisahlarin, Kadinlari ve Kizlay, S. 49.

أميرة علي مداح : خبرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين، ص296.

(21) M. Gagalay Ulucay : Kosem Sultan, Padisanlarin Kadinlari ve Kizlar, S49, Naima, Tarih, V,S. 166 .

(22) Cagatay Ulucay, Harem 2, Ankara 1971, S. 49-50.

(23) أميرة علي مداح : خيرات ماه يكر كوسم والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص296.

(24) .M. Cagatay Ulucay, Padisahlarin Kadinlari ve Kizlar, Ankara, 1980, S.49.

(25) Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Cilt 26, Istanbul 2002, S. 275

أميرة علي مداح : خيرات ماه يكر كوسم والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص301.

(26) أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ص297-302.

(27) أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ص297-302.

M.Cavid Baysun : Kosem Sultan the Encyclopaedia of Islam, Volume Vi, P. 273.

(28) السرطاوي : فؤاد : التمويل الإسلامي ودور القطاع الخاص، (الطبعة الأولى، الأردن: دار المسيرة، 1420هـ/1999م)، ص210.

(29) القرضاوي : يوسف، دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، (الطبعة العشرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1412هـ/1991م)، ص259.

(30) يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج1، ص307-316.

باقر الصدر : محمد، اقتصادنا ، الطبعة الثانية، دار التعارف للمطبوعات، 1408هـ/1987م، ص155.